

The Figures of Kufan Grammar and Their Role in Shaping Its Characteristics

NOURA DJEBLI

Badji Mokhtar University of Annaba (Algeria), E-mail: noura.djebli@univ-annaba.dz

Published: 12/2024

Abstract:

This article seeks to highlight the general features of the Kufan school of grammar, which distinguished it from the Basran school and qualified it to be recognized as a distinct school of thought. It addresses the issue of disagreement that arose at the levels of methodology and terminology despite sharing a common source. The article aims to introduce the key figures of this school and emphasize their role in opening the door to grammatical debate in the Arab world. Thanks to their contributions, various schools of thought emerged in both the East and the West, leading to positive outcomes in terms of content and methodology. This development matured Arabic grammar, completed its structure, expanded its topics, diversified research methods, and broadened the approaches to reasoning among scholars in the field. As a result, numerous works were produced, enriching its content and establishing it as a legacy worthy of respect.

Keywords: Kufan school, grammatical disagreement, development of Arabic grammar.

أعلام النحو الكوفي ودورهم في تشكيل خصائصه
نورة جبلي

جامعة باجي مختار عنابة (الجزائر)، البريد الإلكتروني: noura.djebli@univ-annaba.dz
الملخص:

يسعى هذا المقال إلى إبراز السمات العامة لمذهب الكوفة في النحو والتي ميزته عن مذهب البصرة وجعلته مؤهلاً لحمل اسم مدرسة. وي طرح إشكالية الخلاف الذي نشأ على مستوى المنهج والمصطلح بالرغم من وحدة المصدر. ويهدف إلى التعريف بأعلام هذا المذهب وإبراز دورهم في فتح باب الخلاف في النحو العربي؛ إذ تعددت بفضلهم المذاهب في المشرق والمغرب، وكان لهذا التعدد نتائج إيجابية على مستوى المادة والمنهج. حيث نضج النحو واكتمل بناؤه وتفرعت مسائله، وتباينت وسائل البحث فيه، وتشعبت طرائق الاستدلال عند المشتغلين في ميدانه، وكثرت مؤلفاته وتضخم محتواه؛ فصار تراثاً يستحق الاحترام.

الكلمات المفتاحية: مذهب الكوفة، الخلاف النحوي، تطور النحو العربي.

1 — مقدمة:

اشتهرت الكوفة برواية الشعر رواية واسعة وبالفقه والقراءات القرآنية. فقد حظيت بمذهب فقهي هو مذهب أبي حنيفة، وبتلاثة من القراء السبعة المشهورين وهم عاصم وحمزة والكسائي¹. جاء في معجم البلدان أن سفيان بن عيينة قال: " خُذُوا المَنَاسِكَ عن أهل مكة وخُذُوا القِرَاءَةَ عن أهل المدينة وخُذُوا الحلال والحرام عن أهل الكوفة " ²، ويعني بذلك الفقه.

ونشأت بها مدرسة نحوية كبيرة بعد مضي نحو مائة عام³ على تأسيس أركان النحو البصري. قال ابن النديم: " إنما قدمنا البصريين أولاً لأن علم العربية عنهم أخذ، ولأن البصرة أقدم بناء من الكوفة " ⁴.

2 — أعلام المذهب الكوفي:

ومن أعلامه — مرتبين حسب ما ورد في طبقات الزبيدي (ت379 هـ) — محمد بن الحسن بن أبي سارة الرؤاسي ومعاذ بن مسلم الهراء وأبو مسلم مؤدب عبد الملك بن مروان وهم نواة الطبقة الأولى. ثم علي بن حمزة الكسائي (ت189 هـ) وقد عده الزبيدي ممثل الطبقة الثانية وحده. ثم يحيى بن زياد الفراء (ت207 هـ) والقاسم بن معن وعلي بن المبارك الأحمر وهشام بن معاوية الضرير وأبو طالب المكفوف وسلمويه وإسحاق البغوي وأبو مسحل عبد الله بن حريش وقييبة النحسوي وهم نواة الطبقة الثالثة. ثم سلمة بن عاصم وأبو عبد الله الطوال ومحمد بن قادم ومحمد بن سعدان ومحمد بن حبيب وهم نواة الطبقة الرابعة. ثم أحمد بن يحيى ثعلب وقد جعله الزبيدي ممثل الطبقة الخامسة وحده. ثم هارون بن الحائك وأبو موسى الحامض وأحمد بن عبد الله المعبدي ومحمد بن أحمد بن كيسان وأبو بكر محمد بن قاسم بن الأنباري وإبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان نبطويه وهم نواة الطبقة السادسة وآخر الطبقات التي ذكرها الزبيدي⁵.

2-1 - أبرز النحاة:

سأترجم للرؤاسي والهراء باعتبار تقدمهما الزمني على غيرهما من نواة الكوفة. وللكسائي والفراء باعتبارهما المؤسسين الحقيقيين للمذهب الكوفي.

1 عبده الراجحي، دروس في كتب النحو، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1975 م ص53.

2 ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (كوفة)، 4/493.

3 عمر رضا كحالة، اللغة العربية وعلومها، دار المعلم العربي، دمشق، 1971، ص116.

4 ابن النديم، الفهرست، حققه وقدم له مصطفى الشويمي، دار التونسية للنشر تونس، 1985، ص293.

5 الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، (د،ت)، ص125 إلى ص

أ- أبو جعفر الرواسي (187 هـ):

محمد بن أبي سارة. سمي الرواسي لكبر رأسه. وكان ينزل النيل فسُمي النيل. أخذ النحو عن عيسى بن عمر الثقفي (ت 149 هـ) وأبي عمرو بن العلاء (154 هـ) بالبصرة. وعاد إلى الكوفة فتتلمذ عليه الكسائي والفراء. وهو أول من وضع من الكوفيين كتابا في النحو سماه الفيصل. وقال الرواسي إن الخليل بعث إليه يطلب كتابه فبعث به إليه فقراه ووضع كتابه. وإن كل ما ورد في كتاب سيبويه: "قال الكوفي" فإنما يعنيه وله من الكتب - إضافة إلى الفيصل - التصغير، ومعاني القرآن، و"الوقف والابتداء الكبير"، و"الوقف والابتداء الصغير" و"الإفراد والجمع"، وتوفي أيام الرشيد سنة 187 هـ. وتذكر كتب التراجم أن الرواسي هو أستاذ المدرسة الكوفية الأولى. غير أن السداسيين المعاصرين يردون هذا الزعم ويقولون إنه لم يدل بآراء نحوية ذات قيمة بدليل أن اسمه لم يدر في كتب النحاة الذين جاؤوا من بعده.⁷

ب - أبو مسلم معاذ الهراء: (187 أو 190 هـ)

ويكنى أبا علي. كناه أبوه بأبي مسلم، ثم ولد له ولد سماه عليا فكنى به. عرف بالهراء لأنه كان يبيع الثياب الهروية⁸ (الواردة من مدينة هراة). وهو عم أبي جعفر الرواسي. ولد في خلافة يزيد بن عبد الملك ما بين (101 و 105 هـ). وكان له أولاد وأحفاد فماتوا كلهم وهو باق. ولا كتاب له يعرف⁹. وذكر السيوطي في رواية عن ابن النجار أنه صنف كتابا في النحو¹⁰. ويذكر الزبيدي أن أبا مسلم مؤدب عبد الملك بن مروان جلس إلى معاذ الهراء فسمعه يقول لرجل كيف تقول من "تؤزّره أرا": يا فاعل افعل؟ فأكثر هذا الذي أحدثه من علم الصّرف وكان قد نظر في النحو. فهجأ أصحاب النحو بمقطعة طريفة. وقد بنى السيوطي على هذا الخبر فكرة كون معاذ الهراء واضع علم الصرف. إذ قال بعد أن ذكر ما أورده الزبيدي: "ومن هنا لمحت أن أول من وضع التصريف معاذ هذا..."¹¹. وذهب الدكتور شوقي ضيف إلى القول بأن السيوطي واهم فيما ادعاه لأن كـ... تب الصرف لم تذكر للهراء آراء صرفية ذات قيمة. وأن كل ما أثر عنه أنه كان يعرض لبعض مسائل التصريف، وعلمه بالصّرف كعلم الرواسي بالنحو لا غنى فيه ولا شيء يميزه من علم البصرة¹². كما ذهب المتنافس الحاد الذي كان يبيّن الكوفيين والبصريين هو الذي حمل الكوفيين على ادعاء أسبقية الهراء في وضع الصّرف كما ادعوا قبل ذلك فضل كتاب الرواسي على كتاب سيبويه¹³.

ج - الكسائي (حوالي 119 - 189 هـ):

أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن عثمان بن بهمن بن فيروز مولى بني أسد¹⁴. وقيل كان يكنى بأبي عبد الله. وسمى الكسائي لأنه أحرم في كساء ورداء¹⁵. وقيل لغير ذلك. وهو من أهل "باحمشا"¹⁶ دخل الكوفة وهو غلام¹⁷. وذكر الفراء أنه تعلم النحو على كبر. وكان سبب تعلمه أنه جاء يوما وقد مشى حتى تعب فجلس إلى قوم وقال: قد عيبت. فقالوا له: أتجالسنا وأنت لحن؟ فقال: كيف لحنيت؟ فقالوا له: إن كنت أردت من التّعيب فقل أعيبت، وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحير في الأمر فقل عيبت. فأنتصف من هذه الكلمة ثم قام من فورهِ ذلك فسأل عن يعلم النحو فأرشده إلى معاذ الهراء فلزمه حتى أنفد ما عنده. ثم خرج إلى البصرة فلقى الخليل وجلس في حلقتة. وسأله من أين أخذت علمك هذا؟ فقال له الخليل من بوادي نجدو الحجاز وتهامة. فخرج ورجع وقد أنفد خمس عشرة فنية حبر فسمى الكتابة عن العرب سوى ما حفظ. فلم يكن له هم غير الخليل والبصرة. فلما عاد إلى البصرة وجد الخليل قد مات وجلس في موضعه يونس النحوي. فمرت بينهما مسائل أقر له يونس فيها وصدره موضعه¹⁸. ذاعت شهرته فطلبه المهدي ليؤدب ابنه هارون الرشيد، فاستوطن بغداد، وقرأ على حمزة ثم اختار لنفسه قراءة صارت إحدى القراءات المشهورة. وقرأ عليه بها خلق كثير ببغداد والرقعة وغيرهما من الأمصار. سمع من سليمان بن أرقم وأبي بكر بن عياش ومحمد بن عبيد الله العرزمي وسفيان بن عيينة وغيرهم. وروى عنه أبو توبة ميمون بن حفص والفراء وأبو عبيد القاسم بن سلام وأبو عمرو حفص بن عمرو السدوسي وغيرهم¹⁹. ولما ولي الرشيد الخلافة بعد أبيه اتخذته مؤدبا لولديه الأمين والمأمون. ويروى أن الرشيد أشرف على الكسائي وهو لا يراه - حين كان يدرس ولديه - فقام الكسائي ليلبس نعله لحاجة يريدها، فابتدأ درها الأمين والمأمون فوضعاها بين يديه، فقبل رأسيهما ويديهما ثم أقسم

- 6 اعتمدت في هذه الترجمة: ابن النديم، الفهرست، ص293، 294، والسيوطي، بغية الرعاة في طبقات اللغويين والنحاة، دار المعرفة، بيروت، (د،ت)، ص33. وفيه سماه محمد بن الحسن بن أبي سارة.
- 7 مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط2، 1958، ص78، وشوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، ط2، (د،ت)، ص154.
- 8 السيوطي، بغية الوعاة، ص394.
- 9 ابن النديم، الفهرست، ص295، 296.
- 10 السيوطي، بغية الوعاة، ص394.
- 11 السيوطي، بغية الوعاة، ص393.
- 12 شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص154.
- 13 ينظر: مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة، ص75-77.
- 14 السيوطي، بغية الوعاة، ص336.
- 15 الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، (د،ت)، 403/11.
- 16 قرية بين أوانا والحظيرة. ينظر معجم البلدان، 316/1.
- 17 الكسائي، «ما تلحن فيه العامة»، تحقيق رمضان التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1982، مقدمة المحقق، ص11.
- 18 الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 404/11.
- 19 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

عليهما ألا يعاودا. فلما جلس الرشيد مجلسه قال: أيّ الناس أكرم خادماً؟ فقالوا: أمير المؤمنين أعزه الله. قال: بل الكسائي يخدمه الأمامون. وحدثهم الحديث²⁰.

وعرف الكسائي بفضته وسعة علمه. يروى عن الفراء أنه قال: " قال لي رجل ما اختلافك إلى الكسائي وأنت مثله في النحو؟ فأعجبني نفسي، فأثبته فناظرته مناظرة الأكفاء. فكأنني كنت طائراً يغرف بمنقاره من البحر! "²¹.

ويعد الكسائي الرجل الأول في مدرسة الكوفة. فهو الذي وضع أسس النحو الكوفي وأصوله. وهياً له الأسباب التي استقل بها عن النحو البصري. يقول عنه أبو الطيب اللغوي: " كان عالم أهل الكوفة وإمامهم (...) إليه ينتهون بعلمهم وعليه يعولون في روايتهم " ²². وقد تتلمذ على أيدي البصريين، ثم استطاع أن يشق لنفسه منهجاً مغايراً بنى عليه النحو الكوفي. يقوم هذا المنهج على أساس الزاوية الواسعة للغات العرب وأشعارهم، وعلى اعتماد القراءات القرآنية أصلاً من الأصول التي تستمد منها القواعد. وهذا لا يعني أنه أهمل القياس، بل إنه اعتمده ولكن بشكل يختلف عن قياس البصريين. وسأفصل الكلام في هذا الموضوع فيما سيأتي من حديثي عن السماع والقياس.

خرج الرشيد إلى الرّي واصطحب معه الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني الفقيه. فتصادف أن ماتا في يوم واحد سنة تسع وثمانين ومائة. فقال الرشيد: " دفنت الفقه والنحو في يوم واحد " ²³.

ومن مصنفاته: معاني القرآن، ومختصر النحو، والقراءات النوادر، والعدد، والهجاء، والمصنوع، والحروف، ومقطوع القرآن وموصله، والهاءات المكنى بها في القرآن، واختلاف مصاحف أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة، والحدود في النحو، وما تلحن فيه العامة²⁴ وهو مطبوع.

د - الفراء (144-207 هـ):

أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن مروان الديلمي. وأبوه زياد هو الأقطع قطعت يده في الحرب مع الحسين بن علي رضي الله عنهما. وكان مولى لأبي ثروان مولى بني عيس. وذهب الخطيب البغدادي إلى أنه مولى بني أسد²⁵. أما ابن النديم فقال إنه مولى بني مفر²⁶. وأشار الشويبي محقق الفهرست إلى أن سائر المراجع تنص على أنه من بني أسد²⁷. ولد بالكوفة. وقيل له الفراء لأنه كان يفري الكلام²⁸. درس على يونس بن حبيب البصري. وروى عن قيس بن الربيع ومندل بن علي والكسائي وخازم بن الحسين البصري وأبي الأحوص سلام بن سليم وأبي بكر بن عياش وسفيان بن عيينة. وروى عنه سلمة بن عاصم ومحمد بن الجهم السمرى وغيرهما²⁹.

قال السيوطي: " وكان يحب الكلام ويميل إلى الاعتزال. وكان متدينا متورعا على تبه وعجائب وتعظم. وكان زائد العصبية على سيبويه وكتابه تحت رأسه. وكان يتفلسف في تصانيفه ويسلك ألفظ الفلاسفة. وكان أكثر مقامه ببغداد، فإذا كان آخر السنة أتى إلى الكوفة فأقام بها أربعين يوماً يفرق على أهله ما جمعه " ³⁰.

وكان الفراء الرجل الثاني في مدرسة الكوفة. توسع في الأخذ عن العرب كأسس تاذ الكسائي. وكان بارعا إلى حد كبير في الاستنباط والتحليل لأنه كان متقفا ثقافة كلامية فلسفية واستطاع - بفضل ما وهب من قوة الذهن وحدته ونفاذ بصيرته - أن يعطي النحو الكوفي صورته المتكاملة. لقد وضعت الكسائي اللبنة الأولى للمدرسة الكوفية، إلا أنها لم يتم تشكيلها ولم تبلغ مرحلة النضج إلا بآراء الفراء وما اعتمده من تفسير لبعض الظواهر اللغوية، وما وضعه من مصطلحات³¹.

روي عن أبي العباس ثعلب أنه قال: " لولا الفراء لما كانت عربية لأنه خلصها وضبطها. ولولا الفراء لسقطت العربية لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد، ويتكلم الناس فيها على قدر عقولهم وقرائحهم فتذهب³² ... ". وقد شهد له بالعلم والفضل كثير من القدماء منهم أبو بكر ابن الأنباري الذي قال: " لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفراء لكان لهم بهما الافتخار على جميع الناس إذ انتهت العلوم إليهما. وكان يقال النحو الفراء. والفراء أمير المؤمنين في النحو " ³³.

وقد سئل الكسائي: الفراء أعلم أم الأحمر؟ فقال: " الأحمر أكثر حفظا والفراء أحسن عقلا وأبعد فكراً وأعلم بما يخرج من رأسه " ³⁴.

وكان الفراء عالماً بالفقه. فحدث - ذات مرة - أن سئل عن مسألة فيه وهي السهو في سجدة السهو، فاستعمل القياس النحوي، وقال: لا شيء في ذلك. فسئل كيف؟

20 ينظر ابن النديم، الفهرست، ص 297.

21 ينظر السيوطي، بغية الوعاة، ص 336.

22 أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، تقديم وتعليق محمد زينهم محمد عزب، دار الأفاق العربيّة، القاهرة، 2003، ص 98.

23 السيوطي، بغية الوعاة، ص 336.

24 ابن النديم، الفهرست، ص 299.

25 الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 14/149.

26 ابن النديم، الفهرست، ص 301.

27 المرجع السابق، الصفحة نفسها.

28 السيوطي، بغية الوعاة، ص 411.

29 ينظر: المرجع نفسه، ص 411.

30 المرجع نفسه، ص 411.

31 ينظر: شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص 158.

32 الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 14/152.

33 المرجع نفسه، 14/152.

34 المرجع نفسه، 14/153.

قال: لأن التّصغير في العربية لا يصغر، فكذلك لا يلتفت إلى السّهو في السهو³⁵. وحكى ثمامة أن الفراء لما تصدى للاتصال بالمأمون كان يتردد إلى البساب فرأى أبهــــة أدب. قال: " فجلست إليه ففانثتة عن اللغة فوجدته بحرًا وفانثتته عن النّحو فشاهدت نسيح وحده، وعن الفقه فوجدت رجلًا فقيهاً عارفاً باختلاف القوم وبالنجوم ماهراً وبالطبّ خبيراً و بأيام العــــرب وأشعارها حاداً. فقلت: من تكون؟ وما أظنك إلا الفراء. قال: أنا هو. فدخلت فأعلمت أميــــر المؤمنين المأمون فأمر بإحضاره لوقته. وكان سبب اتصاله به " ³⁶. إذن فقد اتصل الفراء بالمأمون الذي اتخذه بعد ذلك مؤدياً لولديه. وحدث له معهما ما حدثت للكسائي مع الأمين والمأمون، فذات مرة – بينما كان يدرس الولدين – أراد أن ينهض لبعض حوائجه فأسر عا إلى نعله يقدمانه له. ففتناز عا أيهما يقدمه له. ثم اتفقا على أن يقدم كل واحد منهما فــــردا. فلما رفع الخبر إلى المأمون استدعى الفراء وقال له: لو منعتهما عمّا أرادا فعله لأوجعــــتكم لوما وعتبا. فليس يكبر الرّجل وإن كان كــــبيرا عن ثلاث: عن تواضعه لسلطانة ووالده ومعــــلمه العلم³⁷. وقد طلب المأمون من الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النّحو وما سمع من العرب. فأفرده في حجرة ووكل به من يخدمه. فكان يملئ والوراقون يكتبون حتى صنف الحدود في سنتين. وبعد أن فرغ من ذلك خرّج إلى النّاس وأملى كتاب " معاني القرآن " ³⁸. وله من المصنفات – إضافة إلى كتاب الحدود ومعاني القرآن المطبوع – المنقوص والممدود ، وفعل وأفعال، وهما مطبوعان أيضا. والبهاء فيما تلحن فيه العامة³⁹، وكتاب اللغات، والمصادر في القرآن، والجمــــع والتثنية في القرآن، والوقف والابتداء، والفاخر، وآلة الكاتب، والنوادر، والمذكر والمؤنث، واخــــتلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف، والمشكل الكبير، والمشكل الصغير، وكتــــاب الواو، وكتاب يافع ويفعة، وكتاب الأيام والليالي⁴⁰.

3- عوامل نشأة الخلاف النحوي :

قد رأينا فيما سبق أن أئمة الكوفة كانوا تلاميذ البصريين. ويجدر بنا الآن أن نتساءل عن سبب نشأة الخلاف، واحتدام الصّراع الذي دام طويلاً بين أقطاب المذهبيين وأتباعهما؟

يعود الخلاف بين الكوفة والبصرة إلى سبب جوهري هو طبيعة كل مذهب. إذ يقــــوم المذهب البصري على نزعة عقلية فلسفية تميل إلى تعميم القياس على المشهور. في حين يعتمد المذهب الكوفي على الزوايا الواسعة للأشعار فيأخذ باختلاف القــــبائل في بعــــض الظواهر اللــــغوية الخاصــــة. وهذا كله نتج عن الخلفية الثقافية السائدة في كل إقليم . ويذهب بعض الدارسين إلى القول بأن الخلاف بين الطبقات الأولى من البصريين والكوفيين كان خلافاً هادئاً تسوده الروح العلمية. كالخلاف بين الخليل والرؤاسي فإنه لم يكن يتجاوز حكاية الأقوال المخالفة والرد عليها. كما يحدث بين أصحاب المــــذهب الواحد. حتى إن مرافقة الرؤاسي للخليل في القراءة على عيسى بن عمر ولدت بينهما نوعاً من الأُنس سمح للخليل أن يطلب من الرؤاسي كتابه، فروى منه بعض الأقوال لتلميذه سيبويه. فأنبتتــــها هذا في كتابه⁴¹.

ولم يشدّد الخلاف ويطلع بطابع الشدة في المناقشات إلا بعد أن قرّب العباسيون الكسائي وتلاميذه وخصوصهم بتربية أولادهم، فكان ذلك سببا لخلق روح التنافس عند البصريين. وكثيراً ما كانت المناظرات تعقد بين زعماء المذهبيين بقصر الخلافة، وتكون الغلبة في الأخير للكوفيين . والمناظرة الشهيرة بين الكسائي وسيبويه – والتي عرف موضوعها بالمسألة الزنبورية – خير مثال علــــى ذلك. فإنه لما قدم سيبويه بغداد نزل على البرامكة وطلب أن يجمع بينه وبين الكسائي للمناظرة. فأعد لهما يحي بن خالد البرمكي مجلساً حضره ولده جعفر والفضل وجماعة من أكابر النّاس. فأقبل الكسائي على سيبويه يسأله: كيف تقول: " كنت أظن أن العــــقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي " ، أو " فإذا هو إياها " ؟ فقال سيبويه: فإذا هو هي. بالرفع ولا يجوز النصب. فقال له الكسائي: لحننت، لأن العرب ترفع ذلك وتنصبه. وأحضر أعراب الحطمة فوقوا في صفه وقالوا القول ما قاله الكسائي ولم ينطقوا بالنصب. فلم يقولوا " فإذا هو إياها " ؛ ما جعل سيبويه يقول ليحي: مرهم أن ينطقوا بذلك فإن أسنتهم لا تطوع به⁴². وهذه القصة معروفة في أوساط القدماء والمحدثين. وقد أحاط القدماء بجميع ظروفها وملايساتها ، ثم سجلوها شعراً ونثراً⁴³. ومن الروايات ما يؤكد على أمانة الكسائي وصدقه . من ذلك ما حكاه الفراء قال: " دخلت على الكسائي يوماً وكان يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: هذا الملك يحي بن خالد يوجه إلي ليحضرني فيسألني عن الشيء فإن أبطأت في الجواب

35 المرجع السابق، 151/14.

36 المرجع السابق، 151/14.

37 الخطيب البغدادي تاريخ بغداد، 150/14، 151.

38 المرجع السابق، 149/14، 150.

39 ذكر اسمه كاملاً السيوطي في بغية الوعاة، ص411، ودُكر في الفهرست ص304 باسم " البّهّي "، وذكره ابن خلكان باسم " البهاء " في كتابه: " وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان "، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1949، مج 5 ص229، الترجمة رقم 729.

40 ينظر في هذه المؤلفات: بغية الوعاة، ص411، والفهرست، ص304، 305.

41 ينظر سعيد الأفغاني، في أصول النّحو، مطبعة جامعة دمشق، طو، 1964، ص176. وأحمد أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط10 (د،ت)، 294/2. ويذهب مهدي المخزومي إلى القول بعدم وجود تنافس – من أصله – بين الخليل والرؤاسي لأن الرؤاسي – كما قال – لم يكن بالرجل الذي تحمّله قدماء أمام الخليل. ينظر مدرسة الكوفة، ص66.

42 ينظر في هذه المسألة مفصلة: ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويين البصريين والكوفيين، تحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد، دار الفكر، القاهرة (د،ت)، 702/2 – 706. وابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، (د،ت)، 87/1 – 91.

43 حكي حازم القرطاجني هذه الواقعة في منظومة أوردها ابن هشام في المرجع السابق، 87/1-91.

لحقتي منه عتب وإن بادرت لم آمن من الزلل. فقلت له: يا أبا الحسن من يعترض عليك؟ قل ما شئت فأنت الكسائي. فأخذ لسانه وقال: قطعه الله إن قلت ما لا أعلم⁴⁴.

واستمر الصّراع على أشده حتى بلغ ذروته في القسطنطينية بين ثعلب و المبرد، و ثعلب والزجاج⁴⁵. ثم أخذ يضعف بعد وفاة هؤلاء الزعماء.

ويعود سبب الصّراع - حسب رأي سعيد الأفغاني - إلى النزعة الإقليمية التي أسهمت في تغذية العلماء بروح المنافسة، والتي تعود جذورها إلى معركة الجمل حيث انظم البصريون إلى السيدة عائشة وطلحة والزبير، وانظم الكوفيون إلى الإمام علي. فخلفت هذه الحادثة قصصاً وأشعاراً في الفخر والهجاء تذكر العصبية بين أهل المدينتين⁴⁶. وهو رأي يمكن قبوله لكنه ليس وجيهاً. وتبقى خصائص اللغة العربية وما تميزت به من مرونة هي العامل المساعد على إيجاد التأويلات والتخريجات والتوجيهات لمختلف الاستعمالات؛ وهذا أدى إلى فتح باب الخلاف على مصراعيه. يضاف إلى ذلك سبب جغرافي يتمثل في بعد الكوفة عن شبه الجزيرة العربية، مقارنة بالبصرة، فنتج عن ذلك قلة توفر الشواهد الفصيحة عند الكوفيين؛ ما يضطرهم أحياناً إلى الأخذ عن أهل الحضرة والاعتداد بالمثال الواحد.

فما هي الأسس التي أقام عليها أعلام الكوفة مذهبهم فخالفوا بها المذهب البصري؟

1- أسس المذهب الكوفي:

أ- النحو البصري:

زرعت البصرة البذور الأولى للنحو، وتعهدها بالرعاية حتى إذا نضجت واستقرت قام أمرها وجاءت الكوفة وبنت نحوها على ما أحكمته البصرة من قواعد. وقد مر بنا أن زعماء الكوفة تتلمذوا على أيدي البصريين فقد قرأ الكسائي على عيسى بن عمر والخليل ويونس. وقرأ الفراء على يونس أيضاً، وأكسب على كتاب سيبويه يدرسه حتى إذا مات وجد تحت رأسه، كما أكسب عليه علماء الكوفة من بعده.

ثم استطاع الكوفيون بعد أن تشبعوا بالنحو البصري أن يشقوا لأنفسهم منهجاً مستقلاً عن منهج البصريين، يخالفه في بعض الأصول وفي كثير من الفروع. يقول أحمد أمين: "وقد سبقت البصرة بنحو مائة عام حتى أتت الكوفة بعد تأسيس مذهبها خاصاً يضاهي مذهب البصرة وينازعه"⁴⁷. وقال فتحي عبد الفتاح الدجني: "... أراح نحاة البصرة نحاة الكوفة من جهد مائة وخمسين عاماً من البناء المتواصل والتفكير الجاد في استنباط قواعد النحو وتعليل المسائل بها إذ نرى النحو الكوفي في نموه واتساعه لم يأخذ تاريخاً طويلاً إذ تاريخه من حيث نشأته واتساعه لا يزيد عن عشرين عاماً على وجه التقريب"⁴⁸.

وتابع عبد الفتاح الدجني يقول: "ذكر السيرافي عند ترجمته للأخفش البصري "حدثني الأخفش قال: جاءنا الكسائي إلى البصرة فسألني أن أقرأ عليه كتاب سيبويه ففعلت ووجه إلي خمسين ديناراً"⁴⁹ وزاد أبو الطيب على الرواية السابقة قال: "وقرأ عليه كتاب سيبويه سرّاً"⁵⁰.

إن صحت هذه الرواية فهي لا تقدر في الكسائي بقدر ما ترفع من قدره. فهي تبرز إلى حد ما الروح العلمية التي كان يتحلى بها الكوفيون. فبالرغم من المشاحنات العنيفة التي كانت تجري بينهم وبين البصريين إلا أنهم لم يمتنعوا عن الانتفاع بعلمهم. أما ما زاده أبو الطيب اللغوي من أنه قرأ عليه الكتاب سرّاً، فإن صح، فالكسائي فعل ذلك بدافع ما قد يكون نظراً للناس إليه كعالم متميز في ذلك الوقت.

وذهب بعض الدارسين إلى القول بأن الكوفيين استطاعوا الاستقلال عن البصريين بايحاء وتشجيع من بعض البصريين أنفسهم. قال شوقي ضيف: "والحق أننا إذا أردنا أن نبحث بين البصريين عن موجه للكسائي والفراء في إنشاء المذهب الكوفي مثل تَوْأ أماننا الأخفش الأوسط الذي روى عنه الكسائي إمام الكوفة الأول كتاب سيبويه. فهو الذي فتح له وللبراء أبواب الخلاف مع سيبويه والخليل على مصاريحها. وبذلك أهدما للخلاف عليهما وتنمية هذا الخلاف بحيث نفذ إلى مذهبهما النحو الجديد"⁵¹.

إن هذا الكلام فيه جانب من الصواب. وإن نظرة في كتاب الإنصاف تثبت ذلك. إذ نجد الأخفش في كثير من المسائل يرى رأي الكوفيين.

ب - السماع:

روت لنا كتب التراث العربي أن أوائل النحاة الذين سبقوا إلى وضع النحو حددوا قبائل معينة للاحتجاج بلغاتها، مراعين في ذلك مقياس الفصاحة ونقاء اللغة. قال أبو نصر الفارابي: "والذين عنهم نقتل اللغة العربية وبهم اقتدي وعندهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد. فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف. ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين. ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرة قط

44 فتحي عبد الفتاح الدجني، ظاهرة الشذوذ في النحو العربي، وكالة المطبوعات، الكويت ط1، 1974، ص278. نقله عن نزهة الألباء، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس، بغداد، ط2، 1970، ص63.

45 ينظر في نماذج من المناظرات بينهم: سعيد الأفغاني، في أصول النحو، ص189، 192. ويرى غير هذا Henri Fleisch في كتابه *Traité de philologie Arabe*، طبعة بيروت، 1961، ص13/1.

46 ينظر: في أصول النحو، ص217.

47 ضحى الإسلام، 284/2.

48 ظاهرة الشذوذ في النحو العربي، ص235.

49 المرجع السابق، ص236. نقله عن السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تحقيق عبد المنعم خفاجة، مطبعة الحلبي، مصر، ص40.

50 مراتب النحويين، ص98.

51 المدارس النحوية، ص155، 156.

ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم (...) والذي نـقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب فصيرها علما وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب⁵².
لقد اختلف علماء البصرة والكوفة إلى البوادي كما تبين من هذا النص. وتميز منهج البصريين في السماع بالاقتصار على الأخذ عن البدو الخالص المتوغلين في أعماق الصحراء. وقد رحل الكوفيون أيضاً إلى هـؤلاء البدو على نحو ما يحدثنا الرواة عن الكسائي من أنه خرج إلى نجد وتهامة والحجـاز ورجع وقد أنفذ خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ. إلا أن الذي ميز الكوفيين عن البصريين هو أن الكوفيين لم يكتفوا بما سمعوا من فصحاء الأعراب، بل أخذوا عن أهل الحواضر أيضاً. وتوسعوا في رواية الشعر توسعاً كبيراً حتى فاقوا في ذلك أهل البصرة، وصارت رواية الشعر سمة يعرفون بها. أورد محمد عـيد صاحب كتاب " الرواية والاستشهاد باللغة " قول أبي حاتم البصري: " لما قدم الأصـمعي من بغداد دخلت إليه فسألته عن بها من رواة الكوفة فقال: رواة غير منقحين أنشدوني أربعين قصيدة قالها خلف الأحمر. وهم قوم تعجبهم كثرة الرواية، إليها يرجعون وبها يفتخرون " ⁵³. إلا أنهم لم يراعوا صدق الراوي وضـبطه؛ فكثرت الموضوع والمنحول في رواياتهم. قال أبو الطيب اللغوي: " الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله وذلك بين في دواوينهم " ⁵⁴. وأشهر من عرف بالنحل والوضـوع ممن روى عنهم الكوفيون خلف الأحمر الذي قال: " أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فدخلوا علي به؛ فكـنت أعطيهم المنحول وأخذ الصحيح. ثم مرضت فقلت لهم: ويلكم أنا تائب إلى الله، هذا الشعر لي. فلم يقبلوا مني، وبقي منسوباً إلى العرب لهذا السبب " ⁵⁵. أما حماد رواية الكوفيين الأكبر فكان المفضل الضبـي - وهو كوفي مثله - يشكو بمرارة من تسلطه على الشعر بشعودته وتزييفه فيقول: " لقد سلط على الشعر من حماد الرواية ما أفسده فلا يـصلح أبداً! فقيل له: وكيف ذلك؟ أخطئ في روايته أم يلحن؟ فقال: لبيتسه كان كذلك. فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب. ولكنه رجل عالم بلغات العرب وشعرها ومذاهب الشعراء. فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل عنه ذلك في الأفاق؛ فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك؟ " ⁵⁶. وقال أبو زيد الأنصاري: " قدم علينا الكسائي البصرة فلقى عيسى والخليل وغيرهما وأخذ منهم نحواً كثيراً. ثم سار إلى بغداد فلـقي أعراب الحطمة فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله " ⁵⁷. ووجد البصريون الكوفيون يتوسعون في الرواية فيأخذون عن أهل الحواضر دون مراعاة للضبط، أخذوا يفخرون عليهم بقولهم: " نحن نأخذ اللغة عن حرشة (أكلة) الضباب وأكلة اليرابيع (البدو الخالص) وأنتم تأخذونها عن أكلة الشواريز وباعة الكواميخ (عرب المدن) " ⁵⁸.

وبالرغم من أن هذه الأقوال مبالغ فيها أرى أنها تصور إلى حد ما حقيقة منهج الكوفيين في السماع. إذ كانوا لا يتحرون الضبط في النقل. بل الذي يهمهم هو الجمع. والدليل على ذلك أن عدداً غير قليل من الشواهد التي احتجوا بها في خلافاتهم على البصريين لا يعرف قائله. والبصريون لا يجيزون الاحتجاج بما لا يعرف قائلها فلا تكون فيها حجة⁵⁹.
وقد تحامل كثير من العلماء القدماء والمحدثين على الكوفيين، وحاولوا إبراز منهجهم في صورة المفسد للنحو المشوه للغة. وسأفضل الحديث عن هذا الأمر في مسألة القياس، لأن القياس يوضح منهج الكوفيين في وضع النحو والتعامل مع لغات العرب. أما فيما يخص السماع فحسبي ما قلته عن رواية اللـغة عند الكوفيين.

ج - القياس:

قيل أن أحدثت عن القياس عند الكوفيين لا بد أن أشير إلى قياس البصريين ليوضح الفرق. فقد اشترط البصريون في الشواهد التي يقاس عليها أن تكون كثيرة بحيث يمكن أن تستنتج منها القاعدة المطردة. وضـعوا نصب أعينهم الهدف الذي يرمون إليه وهو تأمين سلامة اللغة وعصمة السان من الخطأ، وتيسير العربية على من يريد أن يتعلمها من الأعاجم. فقاموا باستقراء كلام الفصحاء ووضعوا قواعد العربية على الأعم الأغلب، فإذا اصطدموا بشواهد قليلة لا تشملها قواعدهم سلـكوا بها إحدى طريقتين: إما أن يتأولوها حتى تنطبق عليها القاعدة، وإما أن يقولوا: " تحفظ ولا يقاس عليها " .
أما الكوفيون فكانوا يقيسون على المثال الواحد. ولا يراعون مبدأ الكثرة. حتى قيل: " الكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبـدأوا عليه " ⁶⁰.
وقال ابن درستويه: " كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في الضرورة فيجعله أصلاً ويقيس عليه فأفسد النحو بذلك " ⁶¹.

52 نقله عن كتاب الفارابي المسمى بـ " الألفاظ والحروف " السبوطي في كتابه: " المزهر في علوم اللغة وأنواعها " شرحه وضبطه: محمد أحمد جاد المولى بك وم، دار التراث، القاهرة، ط2، (د،ت)، 211/1، 212، وفي كتابه: " الاقتراح في علم أصول النحو "، تحقيق وتعليق أحمد محمد قاسم، مطبعة السعادة، القاهرة، ط1، 1976، ص56.
53 محمد عيد، الرواية والاستشهاد باللغة، دراسة لقضايا الرواية والاستشهاد في ضوء علم اللغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، 1972، ص93. نقله عن المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، المطبعة السلفية، القاهرة، 1343 هـ، ص251.

54 مراتب النحويين، ص97.
55 في أصول النحو، ص201، نقله عن وفيات الأعيان، مكتبة النهضة، القاهرة، 393/1.
56 الطاهر أحمد مكي، دراسة في مصادر الأدب، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1970، ص34.
57 في أصول النحو، ص203، نقله عن ياقوت الحموي، إرشاد الأريب، مطبوعات دار المأمون، بمصر، 1355 هـ، ص182/13.

58 المدارس النحوية، ص160.
59 يراجع الإنصاف في مسائل الخلاف؛ ج1 و ج2.
60 انظر المدارس النحوية، ص162، وضحي الإسلام، 295/2، وفي أصول النحو، ص207، عزا أحمد أمين وسعيد الأفغاني هذا القول إلى الأندلسي شارح المفضل. ونقله سعيد الأفغاني عن الاقتراح للسبوطي، مطبعة دائرة المعارف بحيدر آباد، 1310 هـ، ص100. ونقله شوقي ضيف عن المرجع نفسه، طبعة حيدر آباد، (د،ت)، ص84. ولم يعزه إلى قائل معين.

والحقيقة أن الكسائي - كما توسع في السماع - توسع في القياس. فلم يقف به عند المستعمل الشائع عند أعراب البدو، بل مده ليشمل ما ينطق به المتحضرين ممن يمكن أن يكون اللحن قد دخل على ألسنتهم في رأي البصريين. والذي دفعه إلى فسح المجال للغات الشاذة أنه كان من القراء للذكور الحكيم. يقول شوقي ضيف: " وكانت تجري في قراءته حروف تشذ على قواعد النحو البصري فخشي أن يظن بهذه الحروف أنها غير جائزة وأنها لا تجري على العربية السليمة. وربما خشي اندثارها، وهي جميعاً مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم. غير أن منها ما هو متواتر وهو القراءات السبع. ومنها ما هو غير متواتر وهو ما وراءها من قراءات، وجميعها صحيح. وينبغي أن نتوسع في قواعد النحو والصرف حتى تشتمل عليه " ⁶².

بناء على ما ورد في القراءات القرآنية من استعمالات شاذة رأى الكسائي أنه ينبغي إعادة النظر في الهيكل العام لقواعد البصريين، وذلك بأن يفسح المجال للقراءات واللغات الشاذة. فرسم صورة جديدة للنحو لا تتفق مع المنهج الذي خطه البصريون والذي يقوم على تعميم القواعد وأطرادها.

اهتم الكوفيون بالقراءات وجعلوها أصلاً من أصول النحو. فاعتمدها في كثير من المسائل، حيث وجهوا النحو حسب ما تقتضيه القراءة التي أمدتهم بمعين لا ينضب من الآراء النحوية المتميزة، وساعدتهم على مواجهة البصريين. واستطاعوا بذلك أن يحفظوا الحروف الشاذة في قراءات الذكر الحكيم والأساطير النادرة التي جري على ألسنة العرب، استطاعوا أن يحفظوها من الضياع والاندثار.

وللإشارة، فإن البصريين أيضاً اعنوا بالشاذ ولم يهملوا شأنه. ولكن عنايتهم به كانت من نوع خاص، إذ قالوا: " يحفظ ولا يقاس عليه ". " مشيرين بذلك إلى الجانب السيء في استخدامه، محاولين تحسين قواعدهم وألسنة الناس منه. وبذلك تعاون الطرفان على إثباته مع اختلاف الغاية " ⁶³.

وبمناسبة الحديث عن القراءات فإن شوقي ضيف أشار إلى أن البصريين لم يخطئوا القراءات مع كثرة ما استشهد به منها وقد صرح بقبولها جميعاً مهما كانت شاذة على مقاييسه إذ قال: " إن القراءة لا تخالف لأنها سنة " ⁶⁴. وفي موضع آخر قال شوقي ضيف: " وكان القارئ الكريم وقراءاته مدداً لا ينضب لقواعدهم. وتوقف نفر منهم إزاء أحرف قليلة في القراءات لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة (...) وفي الحق أن بصري القرن الثالث هم الذين طعنوا في بعض القراءات. وهي أمثلة قليلة لا يصح أن تتخذ منها ظاهرة عامة ولا خاصة. وقد كانوا يصفونها بالشذوذ ويؤولونها ما وجدوا إلى التمسك بأويل سببياً " ⁶⁵.

- موقف الباحثين العرب المعاصرين من منهج الكوفيين في السماع والقياس:

يرى مهدي المخزومي أن الكوفيين لم يكونوا يترخصون كل الترخيص في قبول اللهجات، بل إنهم رأوا تلك اللغات تمثل فصيحاً من الكلام لا ينبغي إغفاله. وعقد الكوفيين على جانب من الحق في اعتدادهم بالمثل الواحد. لأن ما كان في نظر البصريين شاذاً خارجاً على الأصول إنما يمثل لهجة معينة ينبغي أن يحسب حسابها. لأن تلك اللهجة تمثل بيئة معينة. فأهدارها إهدار لهذه البيئة ومضحية لجانب لغوي لا تتم الدراسة إلا بالإحاطة به. وذهب إلى حد القول بأن الكوفيين كانوا أميل من البصريين إلى فهم الطبيعة اللغوية. وأنهم كانوا يدركون أن القضايا اللغوية سبيلها السماع والاستقراء لا الإمعان المنطقي في القياس " ⁶⁶. لقد عد مهدي المخزومي الكوفيين أهل سماع واستقراء. والسؤال الذي يطرح هنا: أكان الكوفيون حقاً سماعيين وأهل استقراء؟ وهل من احترام المسموع أن نساوي فيه بين القليل النادر والكثير الشائع، وأن ندس فيه كلام من فسدت لغتهم من أهل الحواضر؟ إن الاعتداد بالمثل الواحد يؤدي إلى خلق قواعد لما هو شاذ وذلك يحدث خلافاً في القواعد العامة المطردة. وإن لم يكن هدفهم تعليمياً فإن الأجيال في كل عصر ستتعلم العربية شاذواً ذلك أم أبوه!

د - العوامل والمعمولات:

الاختلاف في العوامل والمعمولات والمصطلحات لا يعني الاختلاف في الاستعمال. بل هو اختلاف في تفسير الظواهر وتعليلها. فلم يقتصر الخلاف على السماع والقياس وإنما تعداهما إلى تفسير الظواهر اللغوية. فاختلاف في قضايا مثل العوامل المقدره وأصل اشتقاق بعض الأسماء وأوزانها... وغير ذلك مما ظهرت فيه النزعة العقلية عند البصريين الذين يباليون في اللجوء إلى تقدير العوامل المحذوفة وتخريج الاستعمالات حتى تنطبق على قواعدهم، في حين يتوقف الكوفيون في الغالب عند الوصف الخارجي للظاهرة. وعبارة الكساء في ذلك مشهورة حين سئل في مجلس يونس عن قولهم: "لأضربن أيهم يقوم" لم لا يقال: لأضربن أيهم؟ فقال: "أي" هكذا خلقت! ⁶⁷.

في هذه العبارة بنيت "أي" على الضم لأنها - في قياس النحويين البصريين - أضيفت وحذف صدر صلتها. وفي غير هذا الموضع تعرب بالحركات الثلاث. ولذا قال ابن مالك (رجز):
أي كَمَا، و أعرِبَت ما لم تُضَفَ و صدرٌ وصَلِّها ضميرٌ إنْ حُدِفَ ⁶⁸.
ويبدو أن الكسائي يجيز في مثل العبارة السابقة البناء على الضم والنصب.

- 61 بغية الوعاة، ص 336.
62 المدارس النحوية، ص 176.
63 المرجع السابق، ص 177.
64 المرجع نفسه، ص 157. نقله عن ابن الجزري، طبقات القراء، 603/1.
65 المرجع نفسه، ص 19.
66 ينظر مدرسة الكوفة، ص 331، 332، 378.
67 ينظر المزهري، 373/2.
68 ينظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق هادي حسن حمودي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1991 م،

قال سيبويه: " ... وحدثنا هارون⁶⁹ أن ناسا وهم الكوفيون يقرأونها " ثُمَّ لَتَنْزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيْهَمُ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتْيًا " 70 وهي لغة جيدة نصبوها كما جروها حين قالوا: امُرْ على أيهم أفضل ... " 71. وعلق المحقق قائلاً: " وفي نسخة ط: " وحدثنا هارون أن الكوفيين يقرأونها ... ". والكوفيون هم عاصم وحمزة والكسائي " . فهل المعلق محق في قوله؟ وهل قرأ الكسائي - فعلاً - أيهم أشد " بالنصب؟

وقال الزمخشري: " ... واختلف في إعراب " أيهم أشد " ... إلى أن قال: وأيهم أشد - بالنصب عن طلحة بن مصرف، وعن معمر - إذ بين مسلم الهراء أسوأ - تاذ الفراء ... " 72.

ويفهم من هذا كله أن الجمهور يبني " أي " على الضم إذا اضيفت وحذف صدر صلتها. والنصب لغة قليلة لكنها موجودة. وإن ثبت أن الكسائي قرأ بالنصب، وإن صحت الرواية التي أوردها السيوطي بالضم؛ فهذا يعني أن الكسائي يجيز البناء على الضم والنصب في " أي " إذا اضيفت وحذف صدر صلتها. غير أن الذي يعيننا من هذه الروايات ليس الوجه التي يجيزها الكسائي أو يرفضها. وإنما الذي يعيننا هو التعليل لهذه الظاهرة. فإن الكسائي لم يشأ أن يقحم نفسه في متاهات التعليل الذي شغف به البصريون، فلم يكلف نفسه عناء البحث عن علل ضم هذه الكلمة. بل صرح ببساطة أنها " هكذا خلقت " . وقوله: " هكذا خلقت " هو جوهر المنهج الوصفي. والمنهج الوصفي هو أساس الدرس النحوي .

وإن كنا لا نعدم وجود تعليلات عند الكوفيين بل إنهم يضاهاون البصريين في هذا المجال أحياناً. وسأورد بعض النماذج لما اختلفوا فيه على سبيل التمثيل لا الحصر. لأن الهدف من عرضها هو توضيح طرقهم في التفسير والتعليل، وليس مجرد سرد للظواهر. فما اختلفوا فيه وظهرت فيه النزعة الوصفية والعقلية - في أن واحد - عند الكوفيين.

- عامل الرفع في المبتدأ والخبر⁷³ :

مذهب الكوفيين أن المبتدأ يرفع الخبر والخبر يرفع المبتدأ، فهما يترافعان. ومذهب البصريين أن المبتدأ يرفع بالابتداء. أما الخبر فاختلوا فيه، فذهب بعضهم إلى أنه يرفع بالابتداء وحده، وذهب آخرون إلى أنه يرفع بالابتداء والمبتدأ معاً. وذهب آخرون إلى أنه يرفع بالمبتدأ وحده.

برهن الكوفيون على زعمهم أن المبتدأ والخبر يترافعان بأن المبتدأ لا بد له من خبر، والخبر لا بد له من مبتدأ، ولا ينفك أحدهما من صاحبه ولا يتم الكلام إلا بهما. ولا يمنع أن يكون كل واحد منهما عاملاً ومعمولاً.

وقد جاء لذلك نظائر كثيرة في القرآن. قال تعالى: " أَيُّمًا تَدْعُوا فَنُدْعُوهُ أَلْسِنًا مَوْلَايَ " 74. فنصب " أَيُّمًا " بـ " تدعوا " وجزم " تدعوا " بـ " أيُّمًا " وقال تعالى: " أَيُّمًا تَدْعُوا فَنُدْعُوهُ أَلْسِنًا مَوْلَايَ " 75. فـ " أيُّمًا " منصوب بـ " تدعوا " وتكونوا " و " تكونوا " مجزوم بـ " أيُّمًا " . إلى هنا نلاحظ أن الكوفيين التزموا وصف الظاهرة والتمثيل لها بالقرآن. أما تعليلاتهم العقلية فتظهر حين يحاولون الرد على البصريين. فنجدهم يقولون إنه لا يجوز أن يقال إن المبتدأ يرفع بالابتداء لأن الابتداء لا يخلو من أن يكون شيئاً فلا يخلو من أن يكون اسماً أو فعلاً أو أداة من حروف المعاني. فإن كان اسماً فينبغي أن يكون قبله اسم يرفعه وكذلك ما قبله إلى ما لا غاية له. وذلك محتمل. وإن كان فعلاً فينبغي أن يقال: " زيدٌ قائماً " كما يقال " حضر زيدٌ قائماً " . وإن كان أداة فالأدوات لا ترفع الأسماء على هذا الحد. وإن كان غير شيء فالاسم لا يرفعه إلا رافع موجود غير معدوم. ومتى كان غير هذه الأقسام الثلاثة التي قدمناها؛ فهو غير معروف.

وقالوا: لا يجوز أن يقال: إننا نعني " بالابتداء " التعري من العوامل اللفظية لأننا نقول: إذا كان معنى الابتداء هو التعري من العوامل اللفظية؛ فهو إذن عبارة عن عدم العوامل، وعدم العوامل لا يكون عاملاً. والذي يدل على أن الابتداء لا يوجب الرفع أننا نجدهم يبتدون بالمنصوبات والمسكنات والحروف. ولو كان ذلك موجبا للرفع لوجب أن تكون مرفوعة. فلما لم يجب ذلك؛ دل على أن الابتداء لا يكون موجبا للرفع. واحتج البصريون بقولهم: إنما قلنا إن العامل هو الابتداء، وإن كان الابتداء هو التعري من العوامل اللفظية لأن العوامل في هذه الصناعة ليست عناصر حسية كالإحراق للنار والإغراق للماء والقطع للسياق. وإنما هي أمارات ودلالات. وإذا كانت العوامل إنما هي أمارات ودلالات، فالأمارات والدلالات تكون بعدم وجود شيء كما تكون بوجوده. ألا ترى أنه لو كان معك ثوبان وأردت أن تميز أحدهما من الآخر، فصبغت أحدهما وتركت صبغ الآخر، لكان ترك صبغ أحدهما في التمييز بمنزلة صبغ الآخر. فكذلك هاهنا.

وإذا ثبت أن الابتداء عامل في المبتدأ وجب أن يعمل في خبره قياساً على غيره من العوامل، نحو " كان " وأخواتها و " إن " وأخواتها و " ظن " وأخواتها فإنها لما عملت في المبتدأ عملت في الخبر، فكذلك هاهنا.

ولم أشأ التفصيل في هذه المسألة لذلك لم أورد كل الأدلة والبراهين التي قدمها الفريقان للاحتجاج على ما ذهبنا إليه. واكتفيت بما ذكرته لأن الغرض من هذا العرض أن أبين كيفية الاحتجاج في القضايا المتعلّقة بالعوامل والمعمولات. فلا ضير إذا عرضت المسألة كاملة أو بعضها.

69 أشار المحقق إلى أن هارون هذا هو هارون بن موسى القارئ الأعور النحوي صاحب القرآن والعربية. كان يهودياً فأسلم. وروى له البخاري ومسلم. توفي في حدود السبعين ومائة. واعتمد في ذلك الفقهي، إنباء الرواة على أنباء النحاة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الكتب، 1369 هـ، 361/3.

70 مريم: 69. في المصحف المطبوع برواية حفص عن عاصم " أَيُّمُ " وبرواية ورش عن نافع " أَيُّهُمُ " .

71 سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988، 399/2.

72 الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل؛ دار الفكر، 1399 هـ / 1979 م، 519/2.

73 ينظر في هذه المسألة: الإنصاف، 44/1 - 51.

74 الإسراء: 110.

75 النساء: 78.

ويروى أنه اجتمع أبو عمرو الجرمي البصري وأبو زكريا يحيى بن زياد الفراء. فقال الفراء للجرمي: أخبرني عن قولهم " زيدٌ منطلقٌ " بم رفعوا زياداً؟ فقال الجرمي: بالابتداء. فقال له الفراء: ما معنى الابتداء؟ قال: تعريته من العوامل. قال الفراء: فأظهره. قال الجرمي: هذا معنى لا يظهر. قال له الفراء: فمثلته إذن؟ فقال الجرمي: لا يتمثل. فقال الفراء: ما رأيت كاللوم عاملاً لا يظهر ولا يتمثل! فقال له الجرمي: أخبرني عن قولهم: " زيدٌ صرْبٌ " بم رفعه زياداً؟ فقال: بالهاء العائدة على زيد. فقال الجرمي: الهاء اسم فكيف يرفع الاسم؟ فقال الفراء: نحن لا نبالي من هذا فإننا نجعل كل واحد من الاسمين إذا قلت: " زيد منطلق " رافعاً لصاحبه. فقال الجرمي: " يجوز أن يكون كذلك في " زيد منطلق " لأن كل اسم منهما مرفوع في نفسه فجاز أن يرفع الآخر. وأما " الهاء " في " صرْبٌ " ففي محل النصب. فكيف ترفع الاسم؟ فقال الفراء: لا نرفعه بالهاء. وإنما رفعناه بالعائد على زيد. قال الجرمي: ما معنى العائد؟ قال الفراء: معنى لا يظهر. قال الجرمي: أظهره. قال الفراء: لا يمكن إظهاره. قال الجرمي: فمثلته. قال الفراء: لا يتمثل. فقال له الجرمي: لقد وقعت فيما فررت منه. فحكى أنه سئل الفراء بعد ذلك فقيل له: كيف وجدت الجرمي؟ فقال وجدته آية. وسئل الجرمي فقيل له: كيف وجدت الفراء؟ فقال وجدته شيطاناً! ⁷⁶ ما نلاحظه في هذه المناظرة أن الفراء نفر من تقدير العوامل المحذوفة (المعنوية) فمسألة رافع المبتدأ. فلما اضطر للرد على الجرمي في مسألة رافع الاسم المشغول عنه لجأ إلى ما فر منه وهو تقدير العوامل المعنوية. والكوفيون يفعلون مثل هذا في كثير من الأحيان، ولا سيما الفراء الذي قال عنه مترجموه إنه كان يتفلسف في تصانيفه ويسلك ألفاظ الفلاسفة والأمثلة من هذا النوع من المسائل والمناظرات كثيرة.

هـ- المصطلحات:

إضافة إلى اختلاف الكوفيين والبصريين في السماع والقياس، واختلافهم في تفسير الظواهر، اختلفوا أيضاً في المصطلحات النحوية والصرفية. من ذلك أن الكوفيين يسمون الفعل المتعدي " الفعل الواقع " ⁷⁷ والمعطوف " المردود " ⁷⁸ والظرف " الصفة " ⁷⁹ وتتردد عند الفراء مصطلحات " جرى، أجرته، لم يجر " ⁸⁰ ويعني بها صرف الاسم ومفعول به " الصرْف، ومصطلح " القطع " ⁸¹ ويعني به الحال و " خفض " ⁸² بمعنى " نى الجر. كما يسمون اسم الفاعل " الفعل الدائم " ⁸³ والصرْف " المكى " ⁸⁴ و " لا " النافية للجنس " لا التبرئة " ⁸⁵. وأطلقوا مصطلح " العماد " ⁸⁶ على ضمير الفصل في مثل " محمد هو الصرْف " ⁸⁷ وشاعر " ومصطلح " الترجمة " ⁸⁷ على البديل ومصطلح " التفسير " ⁸⁸ على التمييز. وسموا الصفة " التعت " ⁸⁹ والعطف بالحروف " عطف النسق " ⁹⁰ وحروف التقي " حروف الجحد " ⁹¹ وحروف الزيادة مثل " إن في قولنا " ما إن أحد رأيت " باسم حروف " الصلة و الحشو " ⁹². وسموا لام الابتداء في مثل " لمحمد شاعر " " لام القسم " ⁹³ زاعمين أن الجملة جواب لقسم مقدر. هذه أهم المصطلحات التي ميزت مدرسة الكوفة عن مدرسة البصرة. ولا أزعم أنني أحطت بها كلها، فلا شك أن الكثير منها مبعوث في كتب النحو وجمعه يعد عملاً قائماً بذاته يضيق به المكان في هذا الفصل. وإنما قصدت التمثيل لمصطلحات الكوفة لأبين أنها تملك الأداة التي تعبر بها عن آرائها كأية مدرسة مسوقة في أي علم وفي أي فن. وما تجدر الإشارة إليه أن هذه المصطلحات لم تتداولها الأجيال فظلت حبيسة كتب الكوفيين باستثناء مصطلح التعت وعطف النسق والخفض. بينما عمت مصطلحات البصريين وسادت. وقد رأى الدكتور شوقي ضيف أن مرد ذلك إلى دقة مصطلحات البصريين المنطقية ونقص هذه الدقة في مصطلحات الكوفيين التي لم تنشأ إلا لمخالفة البصريين، لا للحاجة العلمية إليها. ورأى أن هذا السبب هو الذي جعل نحاة العصور التالية يرفضونها فيما عدا اصطلاح التعت وعطف النسق ⁹⁴. وقد يعود سبب قبوع مصطلحات الكوفة في ركن ضيق إلى عدم اطلاع الأجيال عليها. إذ ظلت هذه الأجيال عاكفة على دراسة النحو البصري بمصطلحاته خاصة في المدارس النظامية لأنه نحو تعليمي بالدرجة الأولى، ولم تطلع على النحو الكوفي إلا من خلال ما يقوله عنه الخصوم الذين يمارسون الإشهار ضده. وفي هذا المعنى يقول الزجاجي - وهو ممن

76 ينظر في هذه المناظرة: الإنصاف، 49/1.

77 ينظر في هذا المصطلح: الفراء، معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983، 40/1، 121.

78 المرجع نفسه، 304/1.

79 المرجع نفسه، 375/1.

80 المرجع نفسه، 429/1.

81 المرجع نفسه، 12/1.

82 المرجع نفسه، 50/1.

83 دروس في كتب النحو، ص 55.

84 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

85 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

86 المدارس النحوية، ص166.

87 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

88 المرجع نفسه، ص 167.

89 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

90 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

91 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

92 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

93 المرجع السابق، الصفحة نفسها.

94 المرجع نفسه، ص168.

خلط المذهب البصريين - في فقرة أوردها سعيد الأفغاني: " أكثر ما أذكر من احتجاجات الكوفيين إنما أعبر عنها بألفاظ البصريين (...) إذ لو تكلفنا حكاية ألفاظ الكوفيين بأعيانها لكان في نقل ذلك مشقة علينا من غير زيادة في الفائدة. بل لعل أكثر ألفاظهم لا يفهمها من لم ينظر في كتبهم. وكثير منها قد هذبها من نحكي عنه مذهب الكوفيين مثل ابن كيسان وابن شقير وابن الخياط وابن الأنباري ..."⁹⁵.

خاتمة:

ختاما لما سبق يمكننا القول إن اعتماد البصريين في استنباط القواعد على الأمثلة الكثيرة وطرحهم الشاذ جانباً جعلهم يضبطون قواعدهم ضبطاً دقيقاً حتى صارت علماً واضح المعالم. ومن جانب آخر نجد خاصية " الوصف " في المذهب الكوفي كانت كفيلاً بدحض الشبهات التي يحاول بعض الدارسين إثارتها حول النحو العربي عامةً. وهكذا أسفر الخلاف النحوي عن نتائج خدمت اللغة العربية من ناحية اتساع مصطلحاتها وإثراء معجمها وتفرع مسألتها وتعدد أوجه الاستعمال بالنسبة لتراكيبها النحوية وصيغها الصرفية، وكل هذا يدخل في إطار ما يسمى تنمية اللغة العربية.

قائمة المراجع:

1. القرآن الكريم.
2. عبده الراجحي، دروس في كتب النحو، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1975 م.
3. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة (كوفة)، 4/493.
4. عمر رضا كحالة، اللغة العربية وعلومها، دار المعلم العربي، دمشق، 1971..
5. ابن النديم، الفهرست، حققه وقدم له مصطفى الشويبي، الدار التونسية للنشر تونس، 1985.
6. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
7. اعتمدت في هذه الترجمة: ابن النديم، الفهرست، ص 293، 294، والسيوطي، بغية الرعاة في طبقات اللغويين والنحاة، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، وفيه سماه محمد بن الحسن بن أبي سارة.
8. مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط 2، وشوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، ط 2، (د.ت).
9. السيوطي، بغية الوعاة.
10. ابن النديم، الفهرست.
11. شوقي ضيف، المدارس النحوية..
12. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت) .
13. قرية بين أوانا والحظيرة. ينظر معجم البلدان.
14. الكسائي، «ما تلحن فيه العامة»، تحقيق رمضان التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1982، مقدمة المحقق.
15. أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، تقديم وتعليق محمد زينهم محمد عزب، دار الأفاق العربية، القاهرة، 2003.
16. الخطيب البغدادي تاريخ بغداد، 14/150، 151.
17. ينظر سعيد الأفغاني، في أصول النحو، مطبعة جامعة دمشق، ط 3، 1964، وأحمد أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 10 (د.ت)، ويذهب مهدي المخزومي إلى القول بعدم وجود تناقض - من أصله - بين الخليل والرؤاسي لأن الرؤاسي - كما قال - لم يكن بالرجل الذي تحمله قدماء أمام الخليل. ينظر مدرسة الكوفة.
18. ينظر في هذه المسألة مفصلة: ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، القاهرة (د.ت)، وابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت) .
19. فتحى عبد الفتاح الدجني، ظاهرة الشذوذ في النحو العربي، وكالة المطبوعات، الكويت ط 1، 1974، نقله عن نزهة الألباء، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس، بغداد، ط 2، 1970.
20. ضحى الإسلام.
21. ظاهرة الشذوذ في النحو العربي، ص 235.
22. مراتب النحويين.
23. المدارس النحوية.
24. نقله عن كتاب الفارابي المسمى ب " الألفاظ والحروف " السيوطي في كتابه: " المزهري في علوم اللغة وأنواعها " شرحه وضبطه: محمد أحمد جاد المولى بك وم، دار التراث، القاهرة، ط 3، (د.ت)، وفي كتابه: " الاقتراح في علم أصول النحو "، تحقيق وتعليق أحمد محمد قاسم، مطبعة السعادة، القاهرة، ط 1، 1976.
25. محمد عيد، الرواية والاستشهاد باللغة، دراسة لقضايا الرواية والاستشهاد في ضوء علم اللغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، 1972، نقله عن المرزباني، الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء، المطبعة السلفية، القاهرة، 1343 هـ.
26. في أصول النحو، ص 201، نقله عن وفيات الأعيان، مكتبة النهضة، القاهرة.
27. الطاهر أحمد مكي، دراسة في مصادر الأدب، دار المعارف، القاهرة، ط 2، 1970.
28. يراجع الإنصاف في مسائل الخلاف.
29. بغية الوعاة، ص 336.
30. ينظر المزهري.
31. ينظر شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق هادي حسن حمودي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1991 م.
32. سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1988.

33. الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل؛ دار الفكر، 1399 هـ / 1979 م.
34. ينظر في هذا المصطلح: الفراء، معاني القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط3، 1983.
35. دروس في كتب النحو.
36. في أصول النحو.